من التراث الشعبي القصصي الكردي

تاج الهدهد

عبدالغني علي يحيى

قيل والعهدة على الراوي :

إنه كان في قديم الزمان ، ملك عادل ، احبه الناس والحيوان والطير ، واشادوا بعدالته ورأفته ، فكان ان تمتع بسلطان على جميع الاحياء ، وتحت ظلال عدالته ، لم يشكُ أحد في عصره من ظلم أوحيف ، فقد عرف بنصرته للحق والعدل والاخذ بالرأي السديد ، والاستئناس باقوال الاحياء ولاسيما الطيور من هذه الاحياء . وفي ذات يوم ، تزوج هذا الملك على دين الله ورسوله ، من فتاة حسناء ، طبقت شهرة حسنها الآفاق ، وبعد زواجه منها ، أبدى لها الرعاية والعناية ، فتفنن في ذلك ، وسخر كل ماوصلت اليه يده من أجل اشاعة المسرة في قلبها ودفع الكرب عنها . ورويداً رويداً ، راحت اركان سلطانه تتزعزع أمام سلطان جمالها ، الى ان خضع سلطانه لسلطان حسنها ، واخذ يبتعد بمرور الايام عن العدالة ، واخذت العدالة ايضاً تبتعد عنه ، فاتسعت الهوة بينه وبين محبيه ، من ناس وحيوان وطير ، وكاد ان يفقد نفوذه تماماً جراء ذلك ، لولا الحادثة التالية :

في ظهيرة صيف ما ، كانت الشمس تتوهج في الاعالى ، والدنيا تكاد تغلي بتأثير من حرارتها المحرقة في تلك الظهيرة ، توجهت الملكة ، زوجته للسباحة والاغتسال في عين تقع في البراري ، ولم يكن في أطراف العين ، شجر او صخر لحماية الملكة من الحر وتوفير الظلال لها . فأمرت الملكة زوجها الملك : بان ينادي على الطير في الدنيا كي يقبل لصنع مظلة تحول دون وصول اشعة الشمس اليها . وامر الملك الطيور جميعها ، ان تتجمع عند المكان الذي كانت امراته تسبح فيه ، وتنفيذاً لطلبها الذي لم يكن يقبل الرد ، فان زوجها الملك الذي كان يجيد لغة الطير وبقية الكائنات الحية ، امر جميع الطيور في الدنيا ، ان تتجمع في الفضاء الذي كان يعلو المكان الذي كانت زوجته تسبح فيه ، وان تؤلف مظلة تعطي الفيء للملكة ، فتصون بذلك جسدها الناعم من حرارة الشمس المحرقة .

واقبلت الطيور ، فرادى وازواجاً واسراباً من شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، وكل حدب وصوب ، حتى كادت ان تحجب السماء عن الارض ، عندما استقرت ساكنة في الفضاء الذي كان يعلو مكان السباحة ، ثم شرعت بتشكيل مظلة هائلة ، حجبت في النهاية تماماً شعاع الشمس عن جسد الملكة . ومن بين الطيور التي لبت أمر الملك ، طائر الهدهد ، الذي حضر بدوره مع بقية الطيور ، واشغل بجسده الصغير الجميل ، حيزاً من الفضاء اللامتناهي . غير ان هذا الطائر الصغير ، عندما صار قطعة من المظلة الضخمة ، فان التعب بمرور الوقت ، اخذ يهد من قواه ، فحنق ، ومع اشتداد تعبه كان حنقه يشتد ، الى ان شرع في النهاية يفكر مع نفسه كالآتي :

[.. إنها العبودية بعينها ، دعوة جميع طيور الدنيا لصنع مظلة تقي زوجة الملك من حرارة الشمس !! .. إن على الكائنات الحرة الابية ان ترفض الظلم بانواعه] .

واستطرد مع نفسه قائلاً :

[.. إنه الاستغلال بعينه ، الاستغلال ، وإلا فباي حق يستغل هذه الاسراب الهائلة من الطيور المسكينة الضعيفة] .

واضاف :

[.. إن الله يكره العبودية والاستغلال ، وخلقنا احراراً سواسية] .

ان مثل هذا التفكير ، دفع تدريجياً بالهدهد في سريرته الى التشكي والتذمر اولاً ومن ثم الى التمرد والعصيان ، فالخروج على طاعة الملك واوامره ، وانتهى به التفكير مع نفسه الى القول :

[هب ، اني عصيت اوامره ، وخرجت على إرادته ، فماذا سيفعل معي ، ماذا يفعل ؟] ورد بنفسه على تساؤله :

[القتل ، نعم سيقتلني ، ولكن القتل الموت ولا العبودية] .

وقال ذلك مع نفسه ، وشق عصا الطاعة ، فترك المظلة وغادرها ، ثم صفق بجناحيه ، مرتفعاً في الفضاء الواسع الكبير ، بعد ذلك طار يخترق الاجواء كالسهم ، باتجاه بقعة نائية مجهولة ، وسط استغراب وخوف الطيور من جهة واحتجاج وغضب زوجة الملك من جهة ثانية ، لقد كان لانشقاق الهدهد ، دوي هائل !

أحدثت مغادرة الهدهد للمظلة ثغرة ضيقة صغيرة فيها ، ثغرة بحجم الهدهد ، لكن الثغرة هذه بالرغم من صغر حجمها ، فانها تركت المجال لشعاع الشمس المحرقة اللاهبة أن ينفذ من خلالها ويتسلل الى جسد زوجة الملك ، فيحرق الموضع الذي وقع عليه . ويجعله اسود بلون الفحم . وآلم الملكة ذلك واستاءت وغضبت على الهدهد ، فقامت والغت حمامها ، وانصرفت الطيور على أثر ذلك متفرقة في الفضاء ، شذر مذر ، مذعورة وجلة ، خائفة من بطش الملك بهن بسبب مابدر عن الهدهد من تمرد وعصيان وانشقاق !

ولّت الطيور الادبار ، واختفت مؤقتاً في الغابات والمغاور والكهوف ، على الرغم من يقينها بقدرة الملك على مطاردتهن واعتقالهن بل ومعاقبتهن ، متى شاء واراد .

وعادت الملكة حزينة كئيبة الى قصر الملك ، تغلي حقداً وغضباً ، وعندما بلغت القصر ، والتقت بزوجها الملك ، فان اول مافعلته هو ان اخبرت الملك بما فعله الهدهد ، وكيف انه رفض المظلة ، وعصي امره وسلطانه ، ففر الى جهة مجهولة ، مما سبب إحراق بقعة من جسدها تحت تأثير حرارة الشمس المحرقة ، وكللت شكواها بصيحة غاضبة اطلقتها في وجه زوجها الملك ،

ودعت الى معاقبة الهدهد على فعلته ودق عنقه ، لكي يكون عبرة لمن اعتبر ، ولكل من تسول له نفسه عصيان اوامر الملك وسلطانه .

ودهش الملك من تصرف الهدهد ، وغادر الملكة غاضباً مقطب الجبين محمر العينين ، وارسل الى عدد من الطير في الانحاء ، واختار من بينه الباز ، وطلب منه ان يتعقب الهدهد ويفتش عنه في ارجاء الدنيا ، ويعثر عليه ، ثم يجيء به الى القصر حياً او ميتاً . والا فانه ، اي الباز ، سيدفع رأسه ثمناً لأهماله واخفاقه وتقصيره .

وطار الباز وحلق ، فعبر الجبال والوديان والانهار والغابات والصحارى والبحار ، بحثاً وتفتيشاً عن الهدهد ، وفي تجواله ، سأل عنه الرعاة والرحالة والقبائل ، وقطعان الماشية واسراب الطيور ، بعد ذلك جمع اخباراً شتى عن رحيل الهدهد ، حللها وربط بين اجزائها ، بعد ذلك ، وبعد مضي اسابيع ، اهتدى الى المكان الذي اختبأ فيه الهدهد ، وكان موضعاً في جبل شاهق عاصي . فتوجه اليه طائراً ، ولما دنا منه ، ألفاه منيعاً من الصعب الوصول اليه واخراج الهدهد منه بالقوة .. وفكر باساليب عدة لاقناع الهدهد واخذه الى الملك . ونادى على الهدهد حين وقف بالقرب من مدخل المكان ، وعندما جاء الهدهد ، سلم عليه الباز ، ورد عليه الهدهد السلام ، وقال الباز للهدهد :

- لماذا فعلت ذلك ؟

رد الهدهد :

- انا لم افعل شيئاً باستثناء ممارستي لحريتي ..
- اتعلم ان الملك حانق عليك ؟
- اعلم ، ولهذا السبب اخترت هذا المنفى .
- الا تعلم بانه يتعقبك ؟
- لقد توقعت ذلك .
- وانا رسوله اليك لآخذك إليه .. حياً او ميتاً .
- هكذا !
- نعم .
- أنا لااخشى بطشه وتنكيله بي على قول كلمة حق ..
- لكنك ، ان ابيت الخروج ، ورفضت طلبه فانه سيدق عنقي نتيجة لذلك .
- أنا ، لامانع لدي من انقاذك .. والذهاب اليه ..

وسر الباز وقال :

- احقاً تأتي معي ؟ .
- نعم ..
- هيا لنذهب ..
- ولكن بشرط ..

- ما هو؟

- ان يرد على سؤال اتقدم به الى مقامه، بعد ذلك ليفعل مايشاء..

- سأعود اليه لابلغه بشرطك.

- وداعاً..

- وداعاً..

وعاد الباز من حيث اتى، وبعد اسابيع وصل الى قصر الملك، ودخله خائفاً وجلاً، ولما رآه الملك، صاح بوجهه غاضباً وقال:

- اين الهدهد ايها التعس؟

رد عليه الباز قائلاً:

- سيدي لقد عثرت عليه في مكان ناء بعيد وابلغته قرارك وامرك، غير ان له سؤالاً يلح على اجابته من قبلكم.. قبل ان تنزل فيه العقاب، فهل تجيب على سؤاله؟.

وفكر الملك ملياً، واستغرق به التفكير، وحار من امر الهدهد ومن طبيعة السؤال الذي سيوجهه اليه، وقال مع نفسه:

[انه مجرد سؤال واحد، لاضير من الرد عليه].

ثم راح يناقش نفسه بنفسه قائلاً:

«ترى ماذا يخبيء سؤال الهدهد» وبعد مناقشة طويلة مع نفسه، أعلن موافقته على شرط الهدهد، وارتفع الباز في الفضاء وفي ظرف اسابيع وصل الى بيت الهدهد فوقف ببابه، وسلم، ورد الهدهد عليه السلام، وابلغه الباز موافقة الملك على الرد على سؤاله، آنذاك خرج الهدهد، وراح الهدهد والباز يشقان اجواء الفضاء باتجاه قصر الملك.

بعد اسابيع بلغا قصر الملك، ولما رأى الطير والناس الهدهد، استولى عليهم العجب، واخذتهم الدهشة، وشملوه بنظرات تقطر رحمة وشفقة. لكن الهدهد، لاح مرفوع الجبين، لايأبه بشيء، ولا يعير لنظراتهم اهتماماً أو يعطيها وزناً، وحين صار امام الملك وجهاً لوجه، فانه لم يفقد رباطة جاشه، بل على النقيض من ذلك، فقد ارسل الى الاشياء والجند حواليه نظرات لامبالية، واكتفى بان سلم على الملك وجلس. وحين رد عليه الملك السلام، قال له على عجل من امره وبغضب:

هات سؤالك، ايها الشقي المتمرد على سلطاني!

وبهدوء ورباطة جأش قال الهدهد:

- مولاي الملك، من هم اكثر عدداً في دنيانا، الاموات ام الاحياء من البشر؟ ولم يطل التفكير بالملك، بل اجاب على الفور:

- الاحياء.

- كيف؟..

- إذا مات فرد كل يوم، فهناك عشرة يولدون، ويوماً بعد يوم تضيق الارض بالاحياء من البشر!

- اتعد الجبناء والعبيد احياءً ايضاً؟

- كلا!

قال الهدهد آنذاك:

- اذا، انت لست بحي، لانك خائف رهن اوامر امرأتك!..

- انا؟

- نعم انت!

- كيف؟

- باعتدائك على حرية طيور الارض وارغامك لها على صنع مظلة تقي امرأتك من قيظ الصيف وحرارة الشمس!

وكمن صب على راسه وعاء ماء بارد لاح الملك وهو يحملق في الهدهد الذي استطرد:

- ان امرأتك انسان ككل الناس.. وليس لك الحق، وليس لها الحق في استعباد الآخرين.. ولكي تمارس عبوديتك امامها فانك تستعبد الآخرين.. مولاي ان امثالك وان تنفسوا الهواء على ظهر البسيطة، لكنهم في عداد الاموات شاؤا أم ابوا.. اما الحي فهو الحر وحده، الحر الذي يحاسب ضميره، ويحترم ارادة الاخرين وحرياتهم. لذا فان كل من يستعبد الاخرين، وكل من يرتضي بالعبودية لنفسه، يعتبر ميتاً وليس بحي، لهذا فاني إعد الاموات من على ظهر كوكبنا اكثر عدداً من الاحياء!

ولما سمع الملك ما قاله الهدهد، ايقن للفور صواب ماقاله وما ذهب اليه، فتراجع عن قراره وتصميمه، ونزع تاجه من على راسه ووضعه على راس الهدهد. ومنذ ذلك اليوم، وهذا التاج يعلو راس الهدهد كما تقول الحكاية. ومما قاله الراوي ايضاً على لسان الملك:

- إن الاحرار وحدهم جديرون بالتيجان واكاليل الغار!